إدمُند هُسِرل: الوعي الذاتيُّ بالزمان

مايــكل آنــدروز[١]

ترجمة: محمود يونس

يـرى هُسِرل أنّ سلسلةً من اللحظات–الآن المنعزلـة، لا تكفي لتَشكُّلِ أيِّ موضوع، فلا بدّ مـنِ وجودِ نوعٍ من الحضورِ للموضوع يكون مُمتدًّا (مُستمرًّا). فالآنَ المَـعيشةُ هي صيرورةٌ تُشكِّلُ العلاقةَ بَين ما هو ماضٍ مُباشر (من خلال الإستذكار الحضوريّ) ومُستقبلٍ مُباشر (من خلال الاستنظار الحضوريّ). هذه البنيـة المـُتشكِّلة مِن الاستذكار والاستنظار الحضوريّين هـي من أهمِّ أبعـاد الخبرة الإدراكيّة، وهي التـي تُشكِّلُ، بدورِها، لحظـات الزمان كماضٍ وحاضـرٍ ومُستقبل، في وحدةٍ مُتماسكةٍ من الخـبرة الذاتيّة، بحيث يبدو للذات المـُدرِكة أنّ الزمان في سيلانٍ مُستمرّ. أمّا الزمان المقصودُ هنا فليس هو الزمان الموضوعيّ، بل هو الحقل الزمنيّ البَدْئيّ.

١. تمهيد

يقتضي التأويـلُ الفِنُمنُلوجيّ[٢] للزمان جُهدًا خاصًّا إذ لم تُفـرِد المنظومةُ الفِنُمنُلوجيّة «فئةً» خاصّـةً في موضوعه. أمّا موضوعُهُ، فِنُمنُلوجيًّا بالطبـع، فهو الفِنُمنُلوجيا التَرَنسِندَنتاليّة[٣]،

(١) أستاذ الفلسفة القارّيّة وفلسفة الدين في جامعة سياتل بأميركا.

(٢) يُشـير مصطلحُ *Phänomenologie* الألمـانيّ (أو phenomenology بالإنكليزيّة) شجونَ المـُشتغل بالترجمة إلى العربيّة لعدم الوصول إلى توافـقٍ علـى ترجمته، لا لأنّ القوم يجتهدون وكلٌّ مبرَّرٌ له اجتهادُه، بل لأنّ اعتباطيّةَ الترجمة الأولى تفرضُ نفسَها ولعدم وجـود هيئـات علميّة عاملة ومجلّات متخصّصة تمتلك قدرة الوصول إلى إجماع (علميٍّ؛ لا يُلغي الآراء والاجتهادات). فما بين ظواهريّة وظاهراتيّة (الأولى ظاهرَتيّة لعدم جواز النسبة إلى الجمع) وظهوريّة وغيرها، يتآكل المعنى أو يُنهَكُ بما لا يحتمل. ناهيـك عن عدم قدرة هذه المفردات على تبيان الفارق بين *Erscheinung*، أي الظهور للحواسّ، و*Phänomen*، أي الظهورَ في الوعـي. وعلى أمَلِ أن يشيـعَ مُصطلح 'الفيمياء' –على وزن فعلياء الذي استعانتِ به العـربُ عندما قالت كيمياء وفيزياء... – الذي نَحَتَهُ الدكتور موسى وهبي، والذي قد يحُلُّ هذه المشاكل، أجدني مُتمسِّكًا بلفظة 'الفِنُمنُلوجيا' وقد خفّفتُها مُستعينًا بالحـركات. على هذا، تصيرُ *Phänomen* ظاهـرة، و*Erscheinung* ظهـورًا، و*Erscheinen* (أو appearance بالإنكليزيّة) مظهرًا. المترجم.

(٣) آثرت الإبقاء على 'ترَنسِندَنتاليّة'، دون 'مُتعالية'، لشيوعِ تداوُلِها بالعربيّة. المترجم.

أي، بنيــةُ كلِّ شرطٍ لإمكانيّة المعرفــة. بالتالي، تمحوَرَ سؤالُ أصلِ الزمــان وتكوُّنه، كما برز في مشــروع هُسِرل الذي امتدّ على مــدى ٣٠ عامًا (من العــام ١٩٠٠–١٩٣٠، تقريبًا)، حــولَ التصوُّرات المختلفة للزمان؛ حــولَ الخبرات المَعيشة التي يتبــدّى فيها الزمنيُّ بمعناهُ الموضوعــيّ. هنا نجدُ ضرورةَ أن نكــون واضحين تمامًا فيما يخصُّ الغَرَضَ الملائمَ لمبحثنا. فهُســرل لا يريــدُ من تعاطيــه في أصلِ الزمان وتكوُّنــه الزمانَ الموضوعيّ. هــو واضحٌ تمامًا في ذلــك، خاصّــةً في محاضراته التي ألقاها عام ١٩٠٥، والتــي صَدَرت لاحقًا تحت عنوان «**مُحاضــراتٌ حــولَ فِنُمِنُلوجيا الوعي الذاتــيّ بالزمــان** *Vorlesungen zur Phänomenologie des inneren Zeitbewusstseins*».

> إنّ المــرءَ لا يجــدُ أدنى آثارِ الزمــان الموضوعيّ [أي، الكرونولوجــيّ أو «الكونيّ cosmic»] من خــلال التحليل الفِنُمِنُلوجــيّ. فـ'الحقلُ الزمنيُّ البَدْئيّ' ليس، بأيّ شــكلٍ من الأشكال، جزءًا من الزمان الموضوعي[٤].

السـؤالُ الذي 'ينتــابُ' تحقيقَنا، إذًا، هو ما يلــي، «هل تقودُنا ظاهرةُ الزمــان إلى كلّيّة بُنيــة وجودها؟ أم هل نَصِلُ من أصلِ الزمان وتكوُّنــه إلى فهم مَفَادُهُ أنّ كلّيّةَ الزمان، بالمبدإ، مُتعذِّرةُ الإحراز؟» بكلامٍ آخر، كيفَ لتوصيف هُسِرل لأصلِ الزمان أن يُبيِّن البنيةَ الأساسيّة لــكلِّ خبرةٍ ممكنة؟ وبأيِّ المعاني يُحتِّمُ وصفُ تكوُّنِ الزمانِ العودةَ إلى المعطيات الفِنُمِنُلوجيّة حيث كلُّ ما يُختَبَرُ يَتَشكّلُ فِنُمِنُلوجيًّا؟

٢. مسألةُ الزمان كموضوعٍ لأعمال هُسِرل

عــبَّر هُســرل نفسُه عن هذه المُعضلة بغيرِ نحوٍ في كتاباته المختلفــة. فقد ظلّت مسألةُ الزمان محوريّــةً في فِكْرِه بــدءًا بكتابــه '**مباحــث منطقيّــة** *Logische Untersuchungen*[٥]'، وانتهاءًا بمقالته الشهيرة في **الموســوعة البريطانيّــة** *Encyclopedia Britannica*. حتّى إنّه نظرَ إلى مسألة السيكولوجيــا الفِنُمِنُلوجيّة وعلاقتِها بالفِنُمِنُلوجيــا الترَنسِندَنتاليّة من خلال تكوُّن الزمان.

(٤) Edmund Husserl, *The Phenomenology of Internal Time-Consciousnes*, ed. Martin Heidegger, trans. James Churchill (Bloomington, IN: Indian University Press, 1964), p. 24. [وقد صدَرَ الكتابُ مُترجَمًا إلى العربيّة مؤخَّرًا؛ انظر، إدموند هوسرل، **دروس في فينومينولوجيــا الوعــي الباطنيّ بالزمــن**، ترجمة لطفي خيرالله (بغداد–بيروت: دار الجمــل، ٢٠٠٩). والكتاب، في الأصل، مجموعــةُ محاضــرات ألقاها هُسِرل وضبطتها إديت شتاين Edith Stein، ثمَّ عهدَ هُسِرل إلى مارتن هايدغر، الذي حلّ محلّ شتاين كمعــاون لــه، بتحرِّيرها في كتاب. صدر الكتــاب في الفترة التي لم يعد فيها ممكنًا تفادي الخــلافَ الذي نشأ بين الفيلسوفين وأدّى إلى القطيعة بينهما. المترجم].

(٥) ألفــتُ إلى أنّ الكتــاب قد صَــدَر مُترجَمًا إلى العربيّة مؤخّــرًا. انظر، إدموند هوســرل، **مباحث منطقيّــة**، ترجمة موسى وهبي (بيروت–الدار البيضاء: المركز الثقافيّ العربيّ، ٢٠١٠). المترجم.

وتصيرُ المسألة ملحَّةً بشكلٍ خاصٍّ في ضوء سياق نقاشات المفكِّرين الألمان في العقود الأولى من القرن العشرين. قد نستطيع أن نلحظ، على سبيل المثال، نَشْرَ ألبرت أينشتاين [١٨٧٩–١٩٥٥] Albert Einstein لنظريّته في النسبيّة العامّة سنة ١٩١٥ إثرَ تقديم هُسرل للفنُمنُلوجيا الترَنسندَنتاليّة، في كتابه '**أفكار** *Ideen*'، قَبْلَها بسنتين. في **الأفكار**، يُحاول هُسرل التشادَّ مع مشكلة الزمان على ضوء البُنية الترَنسندَنتاليّة للوعي. وهو يستقصي، مجدَّدًا، موضوعةَ الفنُمنُلوجيا الترَنسندَنتاليّة عن طريق «فنُمنُلوجيا إدراك الأجسام» في مقالة **الموسوعة البريطانيّة** التي استغرقت خمسَ مسودّات – ما بين أيلول ١٩٢٧ وشباط ١٩٢٨[٦] – لتُقَرَّ. يلفت هُسرل، في هذه المقالة، إلى أنّ الردَّ الفنُمنُلوجيّ phenomenological reduction «يكشفُ عن ظاهرات الاختبار الذاتيّ الفعليّ»، وهذا تذكيرٌ واضحٌ بنظريَّته في الوعي الذاتيِّ بالزمان التي أذاعها في محاضرات عام ١٩٠٥.

يُظهِرُ الزمانُ الفنُمنُلوجيّ، بعكس الزمان السيكولوجيّ، كلَّ الصُّوَر الجوهريّة التي تحدُّ الواقعَ النفسيّ. ولأنّ الفنُمنُلوجيا الترَنسدَنتاليّة هي نظريّةٌ أكثر نضجًا في الماقبليّ *a priori*، فإنّ الفنُمنُلوجيا الماهويّة eidetic phenomenology شرطٌ لا بدَّ منه لقيام الفنُمنُلوجيا السَيكولوجيّة. وبما أنّ الموضوعيّةَ التجريبيّةَ تتضمّنُ كلّ مُفارق – المحتوى المَعيش والمُختَبَرُ للزمان والمكان الموضوعيّان ضمنًا –، فإنّ الوصفَ الفنُمنُلوجيّ لمنشإ الزمان ومصدره يبدأ **بتعليق** كلِّ حكم حول العالم الموضوعيّ للأشياء والأحداث الحقيقيّة [*epoché*][٧]. هكذا إذًا، يُنبؤُنا إلحاحُ هُسرل الحَرون على ضرورة الردِّ الترَنسندَنتاليّ (منذ ما بعد كتاب **الأفكار** – ١٩١٣) بمراجعة جريئة لعددٍ من المشاكل التي لم تجد لها حلًّا في محاضرات عام ١٩٠٥ حول الوعي الذاتيّ بالزمان.

برأيي أنّ ما أورَدَهُ هُسرل في كتاب '**الأفكار**' وفي مقالة الموسوعة، بالإضافة إلى محاضرات عام ١٩٠٥، يُظهِرُ مدًى واسعًا من الآراء المُعقَّدة التي كان هُسرل ما يزال يتنازعُ معها منذ أن تعرَّف على مشكلة الزمان أوَّلًا على يدَي برنتانو [١٨٨٣–١٩١٧] Brentano. ففي محاضراته حول الوعي الذاتيّ بالزمان، هو يبدأ بوصفِ تحليلِ وعي الزمان [الوعي بالزمان]

(٦) بتعديلات بسيطة فحسب، ظلّت النسخة ١٤ من مقالة هُسرل في الموسوعة البريطانيّة مطبوعةً منذ عام ١٩٢٩ إلى عام ١٩٧٤. انظر، رجاءًا، "The History of the Reduction of *The Encyclopaedia Britannica* Article," Thomas Sheehan, *Edmund Husserl* Collected Works VI (Dordrecht: Kluwer Academic Publishers, 1997), pp. 36-37.

(٧) ربّما لم يُجاوز بعضُ المُترجمة الصواب عندما أبقوَا على المُصطلح اليونانيّ في الترجمة فقالوا 'آبوخه' أو 'إيبوخيه'. انظر، على سبيل المثال، كتاب **المباحث المنطقيّة** (مذكور أعلاه) ترجمة الدكتور موسى وهبي؛ وأيضًا، إدموند هوسرل، **فكرة الفينومينولوجيا**، ترجمة فتحي إنقزو (بيروت: المنظّمة العربيّة للترجمة، ٢٠٠٧).

كـ «مفصَلٍ قديم وصعبٍ في السَيكولوجيا الوصفيّة ونظريّة المعرفة». وعلى خلفيّة الكتاب الحادي عشر من '**اعترافات** *Confessions*' أوغسطين وتحاليل برنتانو غير المنشورة، فإنّه يُشبِّهُ، بإيحائيّةٍ عالية، مسألةَ الزمان بـ«أكثر المشاكل صعوبةً وتضمُّنًا للتناقضات والتعقيدات»[٨].

إنّ مبحثي هاهنا ينبني على أساسِ تفسيرِ هُسِرل الفِنُمِنُلوجيّ لأصل الزمان وتكوُّنه.

٣. إقصاء *Ausschaltung* الزمان الموضوعيّ

يبدأُ هُسِرل محاضرات ١٩٠٥ بتحديدِ مهمّته الإجماليّة في عرض تحليلٍ فِنُمِنُلوجيّ لوعي الزمان (في مقابل العرض السَيكولوجيّ المجرَّد). هو يستهلُّ مشروعَهُ، إذًا، بإقامة تمييزٍ هامٍّ بين «الزمان الفِنُمِنُلوجيّ» و«الزمان الموضوعيّ» (أو «الكونيّ»). من ناحية، ينطوي الزمانُ الموضوعيّ على كلِّ التمايزات الزمنيّة، أي على كلِّ الأشياء الجسدانيّة والذهنيّة بخصائصها المادّيّة والذهنيّة. فكلُّ ما هو موجودٌ بالمعنى الإمبريقيّ، ويمكن تحديدُهُ بقياساتٍ كرونولوجيّة هو من مُقتضيات الموضوعيّة. هذا ما يتضمّن كلَّ خبرتنا، ومنها الأحداث والعلائق والحالات وأشكال الظهورات الزمانيّة والمكانيّة، والمعطيات الحسّيّة، إلخ. ولأنَّ الزمانَ الموضوعيَّ يتضمّنُ الموضوعيّةَ الفرديّة بشكلٍ عامّ، فإنَّ هُسِرل يلحظُ أنَّ الموضوعيّة تتشكّلُ في الوعي الذاتيّ بالزمان وهي، بالتالي، تنتمي إلى سياقِ الموضوعيّة التجريبيّة.

أمّا من ناحية أخرى، فإنّ المحتوى الفِنُمِنُلوجيّ للخبرة المَعيشة – ما يُسمّيه هُسِرل الخبرة الحيّة بالزمان *Zeiterlebnis* – يقتضي إقصاءَ كلّ خبرةٍ مَعيشة، حتّى تلك المرتبطة بإدراك الزمان وتصوُّره *Vorstellung*. ما يرمي إليه هُسِرل في قوله 'الزمان الفِنُمِنُلوجيّ'، إذًا، هو صورةٌ أو صيرورةٌ لا بدَّ منها لربطِ الخبرات بالخبرات. ويعتبرُ، مُتابعًا برنتانو، «الزمانَ الفِنُمِنُلوجيّ» جدولًا حيًّا من الخبرة *Erlebnis*. مع هذا، وبالرغم من كونِ كلِّ خبرةٍ زمنيّةٍ أو مكانيّة تتشكّل بحسب الاشتمال على بدايةٍ ونهاية، فإنّ الجدولَ بنفسِهِ خارجُ كلِّ تشكُّل.

فلنأخذ، على سبيل المثال، خبرةَ 'البهجة'. ففي حين يمكن تعليقُ [*epoché*] ظهورِ الخبرة–نفسِها واقصاؤها على ضوء بُنيَتِها الماهويّة، فإنّ جدولَ الخبرة الواعية لا يُمَسّ. إنّ خبرات البهجة ترتفع وتتلاشى بحسب عوامل شتّى، من قبيلِ المدّة والشدّة والنوعيّة.

(٨) **محاضرات**، مصدر سابق، الصفحتان ٢١ و٢٢.

لكن في حين تأخـذُ النزعةُ السيكولوجيّة psychologism موضوعَ البهجة بسذاجة ككيانٍ مُعطـى، أي كنقطة انفصالٍ مُفترَضـة مُسبقًا لكلِّ بحث، فإنّنا بحاجة إلى التفكير في تشكُّل الموضـوع الذي بحَسَبِه تتشكّلُ البهجة (أو أيِّ خبرة أخـرى). ليس موضوعُ مبحثنا، إذًا، الخـبرة الإمبريقيّة بالبهجـة (أو السعادة أو أيّ شيءٍ آخر)، بل هـو الزمانُ المـُحايث لجريان الوعي.

يبـدو لي أنّ ما يقترحُهُ هُسرل هو أنّ فكرةَ الوعي الذاتيّ بالزمان **نفسَـها** تفترضُ الجريانَ المُحايـث لذاك الـذي يجعلُ كلَّ خبرة ممكنةً أصـلًا، أي، الزمان الفنُمنُلوجـيّ بما هو البنية الترَنسندَنتاليّـة لـكلِّ الحركـة الواعيـة. إذًا، إنّ جـدولَ الخبرة الحيّ **يسـتمرّ** بعيـدًا عن كلّ المـُعطيات والإشارات الزمنيّة، وبغضّ النظر عن كيفيّة إدراك أو فهم هكذا مُعطيات زمنيّة. ما يتغيّرُ هنا ليس المـُعطى الفنُمنُلوجيّ الذي من خلال إيقانه الإدراكيّ الإمبريقيّ empirical apperception تتشكّلُ العلاقةُ مع الزمان الموضوعيّ، بل هو ظهورُ المدّة، والشدّة، والكيفيّة بما هي كذلك. ما يظلُّ ثابتًا، بالتالي، هو الزمان المـُحايث للخبرة الذاتيّة،

> مـا نقبلُـهُ... ليس وجودَ زمان–العالم، أو وجودَ المدّة المحسوسـة، أو ما شاكَل، بل الزمان والمدّة كمـا يظهران كزمان ومدّة. علـى أنّ هذه مُعطياتٌ مُطلقةٌ من العبـث مُساءلتُها. بلا ريب، نحن نفترض زمانًا موجودًا؛ إلّا أنّه ليس زمانَ عالمِ الخبرة بل هو الزمانُ المـُحايث لجريان الوعي(٩).

إنّ مشكلـةَ تكـوُّنِ الزمـان تُصاغُ عند هُسرل بلغـة المـُحايَثـة، ولا تنحصر بمحاضرات ١٩٠٥، بـل تتردّد بعد عشر سنـوات في 'اكتشافه' [هُسرل] للأنـا الترَنسندَنتاليّة في كتاب **الأفـكار**. ككائنـات زمنيّة، فإنّ كلَّ خبرةٍ هي خبرةٌ للأنا المجـرَّدة أو الترَنسندَنتاليّة. بالتالي، ففي إمكانيّة الأنا أنْ توجِّهَ نظرَتها الشخصيّةَ المجرّدةَ إلى هذه التجربة أو تلك، وقد تدركها علـى أنّها كائنةٌ حقًّا، أو علـى أنّها مدّةٌ [أو إن شئت فقُل ديمومـة] في الزمان الفنُمنُلوجيّ. بالرغـم من ذلك، فإنّ ما يُعرَضُ كنتيجة لإقصاء الردِّ الترَنسندَنتـاليّ للزمان الموضوعيّ هو ما يرتبطُ بالوجـود الأساسيّ للموضوع قيد التمحيص. فيما يخصّ هُسرل، فإنّ اكتشاف الاختـزال الترَنسندَنتاليّ يؤدّي دورَ هرمنوطيقا ترقّبيّة مـا. العالَـمُ لا يَظهَرُ فحسب. بل هو يُدرَكُ بالوعي بواسطة فعلٍ تأويليّ. في واقع الأمر، إنّ فعلَ الإدراكِ التأويليِّ هو الذي يُشكِّلُ العالَمَ بما هو 'عالَم'.

وفي حـين تصـفُ نظريّة القصديّـة intentionality كيف يُعطى العالَمُ بما هـو عالم، فإنّها

(٩) **محاضرات**، مصدر سابق، الصفحة ٢٣.

ليست ملائمةً بشكلٍ كافٍ لتفسيرِ كيفيّة كونِ الزمان صيرورةً أو عمليّةً تتشكّلُ بها الأشياء بالمطلـق. بالفعل، فكلُّ تجربةٍ تأتـي الوعيَ عن طريقين. أوّلًا، يُـدرِكُ الوعيُ كلّ تجربةٍ فعليّةٍ أو مُمكنـة تحت عنوان التعاقُبِ الزمنـيّ. هذا ما يعني أنّ الخبرة تتشـكَّلُ على اعتبارِ الوحدةِ الكلّيّـة لجدول الوعي الزمنيّ الذي يَهَبُ الخُبرةَ إمكانيّتَهـا في المحلّ الأوّل. وبما أنَّ خاصّيّةَ هذا الجدول أن يكون محمولًا إلى الموضوع، فإنّ كلَّ خبرة، بما هي خبرة، تتشكّل من تنظيم مُحتوًى–ذاتيًّـا للخـبرات. هذا يعنـي، في المقابل، أنْ ليسَ الموضوعُ وحـدَهُ يكون وحدةً مُتشكّلـةً أو صيرورةً، بل **الجـدولُ الزمنيُّ** للوعي نفسه يكون أيضًـا كذلك. ليس من 'قُطب هويّة identity pole' يلتفُّ حولَهُ التعاقُبُ الزمنيّ أو ينتظمُ فيه. كلّ ما هنالك فهو صيرورةٌ، أو سيلان، أو جدول الخبرة الذاتيّة.

ثانيًـا، تُفهَمُ الخبرات تحت عنـوان المعيّة simultaneity، وهذا مـا يدعو إلى سؤالٍ حول 'جوهرِ' الزمان. فالخبرات لا تهبط من السماء مُعلّبةً ومُوضّبة. بالأحرى، فإنّ معنى (وبالتالي، خـبرة) كلِّ خبرة يتشـكَّلُ من لحظة خبرةٍ راهنة تمتلك حولَها هامشًا من الخبرات التي تسمو علـى أوّليّة صورة–الآن للحاضر المُـطلَق. من المستحيل فصـلُ هامشِ الخبرات بالكلّيّة عن الخـبرة الأوّليّة نفسها. لم لا؟ لأنّ هامشَ الخبرات، عند هُسرل، هو **بنفسـه** شرطُ إمكانِ عبورِ 'الآن' إلى الحضور. ما يبدو أنّ هُسرل بوارد قوله، مُتابعًا برنتانو في ذلك، هو أنّ الاتّحادات الزمنيّـة للخبرة تُشكِّلُ الهامشَ الأوّليّ الواحد للأنا المجـرّدة، أي، وعي–الآن [وعي الأنا بالآن] الأوّليّ الكلّيّ. وكما يلفتُ هُسرل انتباهَنا، فإنّ مسألة جوهر الزمان تقودُنا مجدّدًا إلى مسألة 'أصل' الزمان، التي بِتنا الآن نُدرِكُها بحسب تداعياتها الأكبر،

> تتوجّـهُ مسألةُ الأصل [أصل الزمان] إلى الأشكال البدائيّة لوعي الزمان الذي تتشكّلُ فيه، حدسًا وإطلاقًا، الاختلافات البدائيّة للزمنيّ بما هي المصادر المنبعيّة *originären* لكلّ اليقينيّات بالنسبة إلى الزمـان (...) بهذا السؤال الأخير، نحن نسأل عـن المادّة الأوّليّة للإحساس، والتي ينبع منها الحدسُ الموضوعيُّ بالزمـانِ والمكان عند الفرد الإنسـانيّ أو عند كافّة النـوع. نحنُ غيرُ معنيّين بسـؤال التكوُّن الإمبريقيّ. ما يعنينا هو الخبرات المَـعيشة فيما يخصّ معناها الموضوعيّ ومحتواها الوصفـيّ (...) نحن معنيّون بالواقع فقط بمقدار مـا يكون مقصودًا، متمثّلًا، محدوسًا، أو مفكّرًا فيـه مفهوميًّا. أمّـا فيما يرتبط بمشكلـة الزمان، فهذا ممّـا يقتضي كونَنا مهتمّـين بخبرات الزمان المَـعيشة[١٠].

(١٠) **محاضرات**، مصدر سابق، الصفحة ٢٨.

٤. الطابع الزمنيّ للإدراك

كيمـا نستطيـعَ أن نُحقِّقَ في المنشإ أو التكوُّن **الماقبلـيّ** للزمان، علينا أن نتقدَّمَ بتحقيقٍ في التشـكُّلِ الجوهريِّ لوعي الزمان فيما يتّصلُ بكلِّ فعـلٍ وإدراك. في **الأفكار**، يلاحظ هُسرل أنّ كلّ تجربـة تدخُلُ كموضوعٍ بؤرةَ التأمُّلِ الممكن تمتلكُ طابعًا زمنيًّا خاصًّا للصورة—الآن Now-form، المذكـورةِ آنفًـا. وإلّا، فلا موضـوعَ يُعطى أو يُؤخذ بما هـو موضوع، بما هو وعـي. هذا ما يعنيـه هُسرل بالقصديّـة، أي إنّ ما 'يُعطى' للخبرة يكون وصفًـا مُحايثًا محضًا لمـا يُعطى بالحدس الذاتـيّ أو بالخبرة الذاتيّة. فالقصديّةُ تصف الوعـيَ بالمعنى 'الخصب[١١]' للكلمة. إنّها تصف كلَّ جدول الخبرة كجدول وعيٍ واحدٍ، كوحدةِ وعيٍ واحد.

القصديّـةُ، هنا، تجلٍّ لخصوصيّـة فريدة للخبرات؛ إنّها تقتضي كـوْنَ كلِّ فعلٍ واعٍ وعيًا بشـيءٍ مـا. على نحو مماثل، فـإنّ كلَّ إدراكٍ هو إدراكٌ لشيءٍ مـا وكلَّ حكم هو حكمٌ على شيءٍ ما. وسواءًا أكنّا نُقيِّم، أو نتمنّى أو نتصرَّف أو نتأمَّل، إلخ.، فإنّ جدولَ الخبرة المَعيشة يُشـكِّل وحدةً هكذا عمليّة جذريّة. على هذا النحو، نستطيع أن نُعرِّف منشأ الزمان كعودة إلى جدولِ الوعي نفسه. هذا ما يعني، بعبارات الفنُمنُلوجيا الترَنسندَنتاليّة، أنّ الأنا المـُجرّدة (أو الترَنسندَنتاليّـة) ليسـت موضوعًا أصـلًا، بل هي الإدراكات بجملتهـا. وبما أنّها [الأنا المـُجرّدة] قـد تحتوي على موضوعاتٍ يكون 'واقعُها' مُعلَّقًا، فإنّ خصائصَ وعيِها تصْدُقُ على أيّ عالَم، حقيقيًّا كان أو مُتخيَّلًا.

بالطبع، لم يكن هُسرل، في كلِّ محاضراته حول الوعي الذاتيّ بالزمان، يشير إلى أنا معيّنة، مجـرّدة أو إمبريقيّة. بهـذا المعنى، قد نستطيع أن نقول إنَّ جان بول سارتر Jean-Paul Sartre هـو أقـربُ إلى هُسرل المبكر من قربِ هُسرل المتأخِّر إلى نفسـه. لسارتر، الأنا خُرافةٌ محض؛ الأنـا، كوحدة، مُفارِقـة transcendent. أمّا عند هُسرل المتأخِّـر، أي لهُسرل ما بعد ١٩١٣ (بعد إصدار **الأفكار**)، فالأنا ليست مُفارِقة transcendent، بل ترَنسندَنتاليّة transcendental، في حـين أنّ العـالَمَ هو المُفارق. نعم؛ عند هُسرل المتأخِّـر، توصَفُ الأنا، أفضل ما توصف، بكونها 'مجرّدةً' لا إمبريقيّة. هي تُشكِّل، بالتالي، البنيةَ الأساسيّة لكلّ حقلِ ملاحظة. إنّ الأنا الترَنسندَنتاليّة هي فعلُ تأمُّلٍ محض؛ الأنا المـُجرّدة من القبليّات[١٢].

(١١) هو يستعمل كلمةَ 'حُبلى' في الأصل، والمقصود الممتلئ بالمعنى. المترجم.

(١٢) بالطبع ليس هناك أكثر من أنا عند هُسرل. ثمّة أنا واحدة، يمكن وصفُها، إمّا **إمبريقيًّا**، أي وهي مُتجسّدةٌ، مُكتسيةٌ لحمًا، كائنةٌ في هذا العالم، وإمّا **تجريديًّا**، أي كفكرةٍ مُجرّدة لما هو الشيء، في حالِ ظهوره.

بطبيعــة الحال، فإنّ هُسرل متى ما تقدَّمَ باكتشافه للأنا المُجرّدة إلى الوصف الفنُمنُلوجيّ للتشــكُّل، فإنّ التداعيات فيما يخصُّ مشكلةَ تكوُّن الزمــان تصيرُ أكثرَ إبهارًا. فلننظر بمزيد تفصيلٍ إلى عددٍ من النقاط الأساسيّة في تحليل هُسرل. لكونها ترَنسندَنتاليّةً، فإنّ الأنا شعاعُ استــذكارٍ حضــوريّ[١٣] retention يمرُّ عبر سلسلةٍ من الأفعــال والإدراكات. العلاقةُ، إذًا، بــين الأنا والموضوع غيرِ قابلة للانفصام. فمــن ناحية، تُشكِّلُ الأنا الترَنسندَنتاليّة وحدةَ كلّ الأفعــال الواعيــة؛ تُشكِّلُ جدولًا متوجِّهًــا إلى الذات لوعي الزمان الذاتــيّ. لكن من ناحية أخــرى، فــإنّ الموضوعَ الــذي يَظهَــرُ في وحدَته، يظهرُ فقــط من خلال تحليــلٍ متوجِّهٍ إلى الموضــوع. إذًا، فالمُــدرِكُ–حين–فعله [فعل الإدراك] لا ينفصل عن الفعلِ المُــدرَك. عمليًّا، مــا يضطلع به هُســرل، في هذا المقام، هو تمييــزٌ قُروسطيّ (أرسطيّ)، قائــلًا إنّ عمل الفكرِ [إعطــاء المعنى] *noesis-cogitatio* هو غــيرُ الفكرة [المعنى] *noema-cogitatum* وإن كان لا ينفصل عنها. فالفنُمنُلوجيا الترَنسندَنتاليّة تستكشفُ سُبُلَ تشكُّلِ الموضوعات في الوعي. بل أكــثر من ذلك، فمَسألةُ تكوُّنِ الزمان تُلقي ضوءًا على كيفيّة تشكُّلِ جوهرِ الخبرة كصيرورةٍ أو كجدولٍ توحيديٍّ للوعي الذاتيّ بالزمان.

أخــيرًا، نحن ندنو من صميــم المشكلة المتعلِّقــة بمنشإ الزمان وتكوُّنــه، بحسب تفسير هُســرل الفنُمنُلوجيّ. الزمان 'الكونيّ' يُثبِّت الحركــة؛ إنّه يقيسُ العمليّة التي بموجبها تتوسّطُ الموضوعــاتُ في الموضوعيّــة ومنها وخلالَهــا. فنُمنُلوجيًّا، في المقابل، مــا 'الزمان الكونيّ' إلّا اختلاصٌ rendering كرونولوجــيٌّ للوعــي، إنّه يقيس الـ'ما قبــل' والـ'ما بعد' على عالم الأحداث والظهورات الموضوعــيّ[١٤]. أمّا 'الزمانُ الفنُمنُلوجيّ' فشيءٌ آخر تمامًا. ليس من موضوعاتٍ فرديّة (حقيقيّة أو مُتخيَّلة) في الزمان الفنُمنُلوجيّ بالمرّة. كلُّ ما هنالك في الزمان الفنُمنُلوجيّ هو 'سيلانٌ' مجازيٌّ لنقاطٍ من الواقعيّة متتالية تصدُرُ عنها كلُّ 'آن'. تقودُنا مسألةُ منشإ الزمان، بالتــالي، إلى فهمٍ جذريٍّ لمعنى الفنُمنُلوجيــا الترَنسندَنتاليّة، بالتحديد، تكوُّن الوعــي الذاتــيّ بالزمان. في كلِّ فعلِ خــبرة نكتشفُ محتوًى مُحايثًا. ما يصفُــهُ هُسرل هنا هو صــيرورةٌ (أو سيــلانٌ) جذريّة للذاتيّــة المُــطلَقة. وهذا الجدول التوحيــديُّ للخبرة هو شرطُ إمكان كلِّ تجربةِ واقعٍ مَعيشة.

(١٣) أنــا ممتنٌّ للدكتور نادر البزري لمساعدتــه في ترجمة عدد من المصطلحات الخاصّة بهُسرل، ومنهــا هذا المصطلح. كما أشكر الدكتور جاد حاتم على إيضاحه العديدَ من المفاهيم الهُسرليّة وتصويبه لعدد من الخيارات في الترجمة. المترجم.

(١٤) هذا موضوع رائعٌ في نفسه بناءً، جزئيًا، على تفسير أرسطو للزمن في مصطلَحات 'الماضي' و'المستقبل'. في واقع الأمر إنّ ما يقوله هُسرل هو وجوب أن يتذكّر الوعيُ الحدثَ كي يمتلك الحدث أيّ أهمّيّة. وإلّا، فإنّ ما نشهده هو التغيُّر وليس 'الزمان' بالمعنى الفَنُمنُلوجيّ اللائق الذي نحكي فيه هنا.

في هذا الموضع يكمُنُ اللغزُ الأكبر فيما يتعلّقُ بتفسير هُسرل لمنشإ الزمان وتكوُّنه. كيف لـذاك الترَنسندَنتاليّ حقًّا أن يكـون مُتشكِّلًا ذاتًا ويكون، في الوقت عينه، مُشكِّلًا لذاته؟ ما هـو حقًّـا ترَنسندَنتاليّ يجب أن يمتلـك، كمصدرٍ له، ما هو مُطلقٌ حقًّـا وحتمًا، أي الوعي الذاتـيّ بالزمان. لكن في حدود ما يُظهِرُ الوعيُ الذاتيّ بالزمان نفسَهُ في البنية الأماميّة لكلِّ تجربـة، فإنّه يقف في تقابلٍ تامٍّ مع إمكانيّة أن يُقبَضَ عليه (يُفهم) في كلّيّته. إنّ ظهورَ الزمان يتطلّـب أنّ يُعطـى ككلٍّ بجملتـه، أي أن يُعطَى تمامًا بمـا لا حدَّ لـه. إلّا أنّ 'كلَّ' الزمان هو بالتحديد ما لا يُمكن أن يكون مُعطىً أبدًا.

٥. 'الآن' المتجدِّدة

بعد مزيدِ تحليلٍ، يتبيّنُ أنّ الفاعلَ، أو 'الصورة'، في الوعي الذاتيّ بالزمان، عند هُسرل، ليس فاعـلًا (إن صحّ القول) بالمـرّة. بل هو عمليّةٌ جذريّةٌ، هو إدراكٌ، أو سيرورةٌ، أو وحدةٌ كلّيّةٌ للجدول الزمنيّ. إنّ هدفَ هكذا عمليّة أو غايتَها، بحسب هُسرل، لا حدَّ له. وبما أنّ مهمّةَ الوعي الذاتيّ بالزمـان تتضمّنُ 'رؤيةَ' كلّ عالم الظاهرات الحقيقيّـة أو المـُتخيّلة موضوعيًّا، فإنّ العمليّات نفسَها تكون، أيضًا، مُعطًى لامحدودًا بحسب كثرةِ المنظورات غير المحدودة. الوعيُ كوعيٍ هو السيلانُ اللامحدود للأفعال والإدراكات. في الوقت عينه، في المقابل، ليس هـذا السيلانُ اللامتناهي فوضويًّا، بل هو مُنتظم. ما يعنيـه انتظامٌ زمنيٌّ كهذا هو أنّ الوعيَ كوعـي يتمحوَرُ حول 'نقطة الآن' مُعيّنـة. تخدم هذه 'الآن' كمصـدرٍ أوّليٍّ ينبثقُ بها العالم (الحقيقيّ أو المـُتخيَّل) إلى المعنى.

إنّ منشأ الزمان، من ثَمَّ، يمكن أن يُوصَف بالمعنى الفنُمنُلوجيّ كسيرورة تأسيسيّة زمنيّة، كذاتيّـة **مُطلَقة**. أضف إليه، إنّ كونَ هكـذا توجُّه جذريٍّ مُعطًى يمكن أن يُعتَبرَ وكأنّه يُشكِّل **نفسَـهُ** في وَحدة زمنيّة؛ بالتالي، فإنّ منشأ أو تكوُّنَ كلّ وحدة في الخبرة يكون دائمًا 'الآن–الحاضـر' جديدةً تنبـعُ منها كلُّ 'آن' عنـد كلِّ أفق. هذه 'الآن للتوّ' هـي استنظارٌ حضوريّ protension لـ'الآن–الحاضـرة' المـُترقَّبة، والتي تدخلُ حيِّزَ الوجود حتّى حين تدخل 'الآن' في الاستذكار الحضوريّ. بالتالي، لا تكون، عند هُسرل، 'الآن المتجدِّدة' التي تُشكِّل وَحدة الخُـبرة، لا تكـون ساكنةً (استاتيكيّة) أبـدًا. بالعكس، فإنّ تكوُّنَ وحـدة الخبرة يتشكّل من سيلان دائم، من وإلى 'الآن المتجدِّدة' الفِنُمنُلوجيّة التي لا يمكن مُساواتُها بالزمان الموضوعيّ لأنّها لا يُمكن أن تُختَبَرَ طبيعيًّا.

بحسب هُسرل، يجب على منشإ الزمان وتكوُّنه أن يُفسِّرا التغيُّرَ والمدّةَ كلاهما. في مُصطلحات التغيُّر، يمكننا أن نقول إنّ الزمانَ الفنُمنُلوجيّ يفتقدُ لشيءٍ يسعى إليه وهو تمامُ خُبرته الذاتيّة الخاصّة. إنّ هذا 'الافتقار' هو ما يُسمِّيه هُسرل 'فهمًا apprehension'. فالديمومةُ الزمنيّة، برأيه، تفتقر إلى 'الآن المباشرة' التي ترومُها كلُّ 'نقطة آن'. ومن خلال عمليّات الاستذكار والاستنظار الحضوريّين، يفترضُ الوعيُ الذاتيّ بالزمان كلَّ ظاهرةٍ متشكِّلةً كوحدةٍ في الخبرة الذاتيّة. تكمن المفارقةُ في أنّ هذه الوحدة في الخبرة الذاتيّة تودي بـ'الآن توًّا' إلى الانهيار تحت وطأة عبئها. وكبنية ترَنسندَنتاليّة للخبرة، فإنّ 'الآن توًّا' تكفُّ عن كونها الآن 'توًّا' في نفس نقطة التوجُّه التي تُدرِكُ فيها 'الآنُ المتجدِّدة' دخولَها في حيّز الوجود. بالتالي، فإنّ أثرًا من 'الآن توًّا' يُحتجَزُ (يُستذكرُ) في كلِّ خبرة توحيديّة للجدول الحيّ. إلّا أنّ هذا الأثر لم يعُد 'الآن توًّا' بعد الآن. إنّه يستسلمُ على الدوام لصالح 'الآن توًّا' جديدةً لتدخل في حيِّز الحضور، إنّه يفهمُ الدخولَ في حيِّز الوجود كتحوّلٍ في الوجهة الزمنيّة. دونما تحوُّل، ليس من إمكانيّة لجدولِ خبرةٍ حيّ. مع هذا، فإنّ ما يجري اختبارُهُ في هذا الجدول الحيّ هو عمليّةُ توحيد ذاتيّة ترَنسندَنتاليّة جذريّة. ما يستمرُّ في الزمان الفنُمنُلوجيّ، إذًا، هو الخبرة الذاتيّة لإدركات الظّاهرات المتغيِّرة أبدًا.

إنّ جدولَ الخبرة الحيّ يُشكِّلُ العالمَ في مظهرَي الاستذكار والاستنظار الحضوريّين. لكن في حين يُعطى الوعيُ المُفارقَ، فإنّ المُفارق ليس ترَنسندَنتاليًّا. أو، ربّما، في صياغة أخرى: فإنّ الزمان الذاتيّ هو ما قبلِ تأمُّليّ، أي مُتشكِّل constituted؛ في حين أنّ الوعي بالزمان الذاتيّ تأمُّليّ، بالتالي مُشكِّل. ما يبدو أنّ هُسرل يتّجه صوبَهُ هو فكرة أنّ أصلَ الزمان الفنُمنُلوجيّ تجعلُ ممكنًا شروطَ الإدراك وفي الوقت عينه، تنتهكُ هذه الشروط بتشكيل **الجدول-نفسه** كحاملٍ لكلِّ شرطِ إمكان. لا يتشكَّلُ الزمانُ الفنُمنُلوجيّ من خلال مجموعة نقاط 'قبل' و'بعد'. الزمان الفنُمنُلوجيّ لا يتغيّر؛ إنّه **يستمرّ**. إنّه يدركُ محتوًى حتّى حين يكون قيدَ الاختبار، لكن حتمًا ليس بالمعنى الإمبريقيّ.

فلنأخذ، على سبيل المثال، ابنةَ تسعة أشهر. فنُمنُلوجيًّا، لا حاكميّةَ للإله **خرونوس** *Chronos* عليها، لا معنى عندَها للزمان الكرونولوجيّ بالمرّة. الطفلُ يبكي عندما **يكون جائعًا**، لا عندما يحضر وقت 'الطعام'. أي إنّه يبكي عندما **يكون جوعًا**. والجوعُ ليس أمرًا يمتلكُهُ الطفلُ أو يشعرُ به أو يتحسّسه؛ إنّه أمرٌ **يكونُه**، بعبارة فنُمنُلوجيّة. وفي اللحظة التي يضرب فيها الجوع، يلتوي الجسد، وترتجفُ القدمان ويرتفعُ الصوت، وتتدفّقِ الدموع ويندفع الدم إلى الوجه، إلخ. ليس من هذه النشاطات ما يتشكّلُ نتيجة عمليّةِ تفكرٍ ذهنيٍّ

تأمُّليّة مُتأنّية. الجوعُ عند الطفل، تاليًا، ليس مُتشكِّلًا بقدر ما هو مُشكِّلٌ.

في سيـاقٍ مشابه، يكون اللحن أيضًا مُشكِّلًا. فلنأخذ، على سبيل المثال، إحدى أغنيات الأطفـال المعروفة. كطفل، لا يصـحُّ أن نقول بحقِّه إنّه 'يفهمُ' الكلمـات التي يسمعها، أو 'يُقـدِّر' اتّسـاقَ النغم أو 'يقبضُ' علـى أي بناء تركيبيٍّ مُعقَّد. مع هذا، فـإنَّ اللحنَ يأسِرُه. إنّـه يمتلكُـهُ ويجعلُهُ رهينَ سحرِه – إن صـحَّ القول. يجذبه اللحـن إلى اختبار حالة جديدة مـن الوعي الرفيع بالعالم المحيط به. وعوضَ أن يكـونَ الطفلُ هو الذي يُشكِّلُ اللحنَ بمعنى امتـلاك نغمٍ أو إيقاعٍ ما، فـإنّ اللحنَ – الذي يكونُ معَهُ، إلى حـدٍّ بعيد، غيرَ مؤتلف – هو الـذي يُشكِّله. والطفلُ لا يمتلك فكرةً عن أيّ من المفاهيم الواردة في الأُغنية وإن كنتَ تراهُ يضحك ويصفِّقُ ويرقص كلّما طَوَت الأغنيةُ مقطعًا أو دخلت في موضوعٍ جديد.

أرى أنّ مـا مـرّ يعرِضُـ بشـكلٍ مُنصف لمـا يحاول هُسـرل أن يصفه عن طريـق تحليله الفنُمنُلوجيّ لمنشـإ الزمان. ولأنّ اللحن ليس بموضوعٍ حيّزيّ (أي له حيِّزٌ في الفضاء)، فإنّه يرتبـطُ بوثاقة بالزمان. يعمَدُ هُسرل [حتّى] إلى وصفِ زمانيّة الصوت؛ مثلًا، عندما تختفي (تموت) نغمةٌ ما، فإنّها 'تموت' في اقترانٍ مع ترقُّبِ ظهورِ نغمةٍ جديدة،

> عندمـا يصدُرُ لحنٌ ما، مثلًا، فـإنّ النغمات الفرديّة لا تختفي تمامًا عندما يتوقَّـفُ المنبِّهُ أو يتوقّف ردُّ فعـلِ العَصَبِ المـُثار. عندما تصـدر النغمة الجديدة، لا تختفي سابقتُها دونما أثر؛ وإلّا، لما كنّا قادريـنَ على ملاحظة العلائق بـين النغمات المتتالية. لا بدّ من نغمة عنـد كلِّ لحظة، وربّما كانت في الفاصـلِ بين صدورِ النغمة التالية مرحلةٌ فارغة *leere*، ولكن ليس أبدًا تصوُّرُ *Vorstellung* لحـن... كلُّ عرضٍ ينضمُّ بطبيعيّـة إلى سلسلة عروضٍ مُتتابعة يعيدُ كلُّ واحـدٍ منها إنتاجَ محتوى سابقتِه لكن بنحوٍ تكون فيه لحظةُ الماضي مُلتصقةً أبدًا بلحظةِ الجديد(١٥).

تَقَـعُ كلُّ نغمة سابقة في الاستذكار الحضوريّ، وتُنسـى النغماتُ الأسبق إذ تنسابُ إلى الصمـت. لكن، لكي يكون للحنٍ ما أيّ معنـى، أي ليكون اللحنُ لحنًا لا نشازًا، فعلى كلِّ نغمـة تُنسى أن تظـلّ، في نفس الوقت، 'حاضـرةً' بمعنًى من المعاني في وحـدة موضوعيّة. بكلامٍ آخر، ليس الامتدادُ – أو المدّة – عند هُسرل، مجرّدَ عرضٍ للنغمات يتلاحقُ في الوعي. فالنغمةُ التي تنسابُ إلى الماضي عليها، والمفارقةُ هنا، أن تستمرَّ، أي أن تُشكِّل الحاضر. وإلّا، فبدَلَ الاستماع إلى معزوفةٍ ما، فكلُّ ما نختبره يكون «شريطَ نغمات مُتعاقبة أو بلبلةَ أصوات غـيرَ متجانسةٍ كما لو صدرت عن ضرب كلِّ الأوتـار في لحظةٍ واحدة»(١٦). هنا 'تستسلِمُ'

(١٥) **مُحاضرات**، مصدر سابق، الصفحتان ٣٠ و٣١.
(١٦) المصدر نفسه، الصفحة ٣٠.

كلُّ نغمــةٍ إلى الصمــت في إدراك النغمة القادمة؛ إلّا أنّ كلَّ نغمة سابقة تمكُثُ طويلًا قبل أن تــذوي. في فعله هذا، فإنّ الاستذكار الحضوريّ يترقّبُ الحاضر، ويولّد 'الآن–توًّا' جديدةً، تُدركُ استمراريّةً متنوِّعــةَ الشدّة والنوعيّة من خلال السريان المتناغم للاستذكار والاستنظار الحضوريّين. يُحتَجَزُ (يُستذكَرُ) 'الاستسلام' في ذاكرة الآن–المـَعيشة.

٦. فعلُ الإيقان الإدراكيّ: الترقُّب والمُدّة

فنُمنُلوجيًّا، يقتضي 'الترقُّب [أو الاستباق أو الترقُّب الاستباقيّ anticipation]' جزءًا مُشكِّلًا لـكَلّ خبرة. خذ، علــى سبيل المثال، صمتَ قاعة الاحتفال في اللحظــات التي تسبقُ الأداءَ الموسيقيّ. إذ يخفُتُ الضوء، يقعُ الجمهور في الصمت. إنّه صمتٌ يصمُّ الآذان بالفعل، فهو يمتلــئ بالترقُّــب الاستباقيّ في اقترانٍ مع توقُّع ما سوف يأتي. على وجه الدقّة، فإنّ مجيء هذه 'الآن المستقبليّة' ليس بشيءٍ بالمرّة، إنّه ليس المـُعطى الفنُمنُلوجيّ هنا هو الظهورُ المـُطلَق لــ'الآن المتجــدِّدة'. مع هذا، فــإنّ الآن تحضُرُ دائمًا تحــتَ مظهرَي الاستــذكار والاستنظار الحضوريّــين. ما الذي يكتنفُــهُ هذا المظهر؟ على نحوٍ تتابعيّ: تظهَرُ 'الآن'، وفي اتّحادٍ معها، أثرٌ لـ'ماضٍ' وأثرٌ لـ'حاضر[١٧]'.

وكمــا تشتمل وحــدةُ الوعي على الحاضــر والماضي من خلال الاستــذكار، فإنّ وحدة الوعــي تشتملُ، أيضًا، على الحاضــر والمستقبل من خلال الاستنظار. لاحظ، في المقابل، أنّ وحدةَ الوعي لا تُقلِّصُ الماضي (أو المستقبل) إلى الحاضر. وإلّا، فإنّ اللحظة الزمنيّة 'الماضي' يجــب، بنفس المعنــى الذي يكون فيه العنصر 'أحمر' الذي نختــبره بالفعل، أن تكون لحظةً حاضــرةً لخبرةٍ مَعيشة – «وهذا، بالطبع، سُخْفٌ واضــح»[١٨]. تفترض وحدة الوعي هذه، عند هُسِرل، مُعطىً فنُمنُلوجيًّا، رغم كونه واضحًا في الإشارة إلى توليد تحليله عند هذا المفصل لعددٍ من الاعتراضات على عدَم قدرة برنتانو على التمييز (بخصوص نفس هذه النقطة) بين الفعــل والمحتوى. بالتالي، يجب فهمُ ما يُسمِّيه هُسِرل 'اللحظةَ الزمنيّة' من خلال، بعبارات فنُمنُلوجيّة، 'عُرُوض supervenience' اللحظة، أي من خلال ما هو مُدرَكٌ أو مُتشابكٌ مع ما يُسمِّيه هُسِرل نَزْحَ *Ablauf* المحتويات الأخرى والكيفيّات والكثافات، إلخ.،

نحــن نرى، بالنتيجة، أن لا جــدوى تُرتجى من تحليلٍ للوعي بالزمان يجعــلُ فاصلًا زمنيًّا حدْسيًّا

(١٧) لوصف أكثر تفصيلًا لهذا الموضوع، انظر، **مُحاضرات**، مصدر سابق، الصفحة ٣٦ وما يليها.
(١٨) المصدرُ نفسه، الصفحة ٣٨.

مفهومًا فقط من خلال التدرُّج المستمرّ للحظات جديدة تذوبُ في، أو تتلاشى بعيدًا عن لحظات المحتـوى التي تُشكِّلُ الكيانَ الموضوعيَّ المتموضِعَ زمنيًّـا [*Gegenstädliche*]. باختصار، إنّ صـورةَ الزمان ليست – بنفسها – محتوى الزمانَ ولا هي مجمـوعُ المحتوى الجديد المُضافِ إلى محتوى–الزمان بنحوٍ أو بآخرَ[١٩].

فلنعُد، مجدَّدًا، إلى المثال السابق الذي مرَّ أعلاه. رغم أنّ لحظةَ الصمت في الصالة قبل أن تنطلق الأوركسترا تكون فارغةً، فإنّ اللحظةَ تكون، مع ذلك، حُبلى بالترقُّب الاستباقيّ. إنّ 'الحاضرَ الفارغ' يترقّبُ 'صوتَ' الذي سوفَ يأتي، متساوقًا مع ما كان للتوّ. بالفعل، هذا مـا يعني أنّ كلَّ فرضٍ *Setzung* يجب إقصاؤهُ أو تعليقُهُ كي يؤخَذَ 'الصوتُ' على أنّه مُعطًى هيـولِيّ hyletic datum. «إنّـه يبدأ ويتوقّف»، يكتـب هُسِرل، «وكلُّ وحـدةِ مُدَّته، وحدةِ العمليّةِ التي فيها يبدأ وينتهي، 'تستمرُّ' إلى النهاية في الماضي المتباعد أبدًا»[٢٠]. لكنَ ما الذي يرمـي إليـه هُسِرل بهذا الغَرَق في «الماضي المتباعد أبدًا»؟ لهُسِـرل، أنا 'أحتجزُ' الصوتَ في 'الاستذكار الحضوريّ'، وطالما استمرَّ الاستذكار؛ فللصوت «زمنُهُ الخاصّ». بكلام آخر، مـا يصفُهُ هُسِرل هو نـوعٌ من الإيقان الإدراكيّ ، أي، الكيفيّة التـي تُعطى بها الموضوعاتُ الزمنيّة–المُـحايثة *Zeitobjekte* أو 'تظهَرُ' في سيلانٍ دائم. من وجهة نظرِ سيلان الوعي، فإنّ نفسَ هذا الصوت المسموع الآن هو **ماض**، لقد انتهت مدّته. تتراجعُ نقاطُ الوقت الزمنيّ، «يختفي [الصوت] في غياهب الوعي»[٢١].

خـلال كلِّ عمليّةِ سيـلان الوعي، يكون الجـدولُ الذاتيُّ للوعي واعيًـا لنفس الصوت المستمرّ، كأنّه مستمرٌّ في مسارِ 'آنات' مُتعاقبة. إذًا، تكونُ 'آن المستقبل' مُترقَّبةً دائمًا كعُنصرٍ أساسـيٍّ في كلِّ وحـدةٍ من الوقت. لكن، رغـم أنّ أثرًا من الـ'ليس بعد' يكـون مُترقَّبًا، فإنَّ هـذا التوقُّعَ لا يُعرِّفُ الآن المَـعيشة. الـ'ليس بعد' المستقبليّـة تكون محسوسةً، إنّها مُشكِّلة، إنّهـا شرطُ إمكانِ الخبرة؛ ولكنّهـا ليست حاضرةً، بعدُ، بنفسِ الدرجة التي تُشكِّلُ بها 'الآن المتجدّدةُ' سيلانَ الموضوع الزمنيِّ الـمُحايث.

يتكلّـم القدِّيـس بولس، كذلك، عـن الأشياء المُـحايثـة في رسالتـه إلى القولُسيّين. هنا يُسمّـي بولس أشياءَ الزمان الحاضر «ظلَّ الأمـور العتيدة»[٢٢]. فالبنية المشيّحيّةُ لعصرِ المجيء المتوقَّع لها جذورُها في اللحظة الحاضرة: اليومَ هو يوم الخلاص salvation. للقدِّيس بولس،

(١٩) **محاضرات**، مصدر سابق، الصفحتان ٣٩ و٤٠.
(٢٠) المصدر نفسه، الصفحة ٤٤.
(٢١) المصدر نفسه، الصفحة ٤٥.
(٢٢) **القولسيّون** ٢: ١٦–١٧.

المستقبلُ هو ليس–بعد، ولكنّه ليس 'ليس–بعد' بالكامل. فبتشكُّلها من بنية إيقانٍ إدراكيّ وترقُّبٍ استباقيّ، تظهَرُ الـ'ليس بعد' كحدثٍ مُشكِّل. المستقبل يُشكِّلُ الحاضرَ من خلال التوجيه الملائم لـ'الآن المتجدِّدة' صوبَ ما هو لامتناهٍ ومُفارِق، أي صوبَ مُستقبلٍ يتخطّى قبضةَ 'العصر الحاضر'. بنحوٍ متّصل، يُشكِّلُ الاستذكارُ والاستنظارُ الحضوريّان، معًا، اللحظةَ الحاضرةَ عبرَ التوجيه الملائم لـ'الآن المتجدِّدة' ككيانٍ موضوعيٍّ مُتموضعٍ زمنيًّا [*Gegenständliche*]. فِنُمِنُلوجيًّا، يولِّد الاستذكار والاستنظار السيلانَ الترَنسِندَنتاليّ للخبرة الذاتيّة.

هذه الخبرةُ المزدوجة بالاستذكار والاستنظار، أي خبرةُ التوقُّع والديمومة (المتّجهة إلى الخلف وإلى الأمام)، تكون مُشكِّلةً بمعنى أنّها تتوقّعُ 'الحاضرَ' البنيويَّ لكلِّ خبرةٍ بـ'الآن توًّا'. فالترقُّبُ الاستباقيُّ، كبنيةٍ إدراكيّة، قد بدأ بالفعل بتحويلِ 'العصر الحاضر'. إلّا أنّ هذا الإدراك [الإيقان الإدراكيّ] هو مجرّد ظلّ، أثر، فاصلةٍ حُبلى قبل بدء الأوركسترا. وبنحوٍ مشابه للقدِّيس بولس، فإنّ هُسِرل، أيضًا، يتوقّعُ الـ'ليس بعد' التي لم تحضُر تمامًا (رغم أنّها مُترقَّبةٌ بشوق) والتي، في الوقت عينه، تحتفظُ بأثرٍ لـ'ما–كان–للتوّ–ولكن–لم–يعُد–حاضرًا–بعد'. وإلّا، تكون كلّ 'الآن توًّا' هي **كلُّ ما هنالك**، ما يُطيحُ بكلّ خبرةٍ وإمكانيّةِ فهم. بالفعل، إنّ هُسِرل يقول بأنَّ الوعيَ الذاتيَّ بالزمان يُعيِّنُ حدودَ أصلِ الزمان والمعنى ومنشئهما. إذًا، فـ'الآن المُطلَقة' (بعبارةٍ فِنُمِنُلوجيّة)، يمكن تبريرُها بـ'تعليق' بنية الزمان الكونيّ. ولكن بالقدر الذي يُنتَهكُ فيه الزمانُ الموضوعيّ، فإنّ ما نكتشفه هو البنيّةُ الماهويّة للوعي، أي السيلان المستمرّ أو الصيرورة للاستذكار والاستنظار الحضوريّين. من دون الوعي الذاتيّ بالزمان، لا يمكن وجودُ القبل والبعد، إذ لن يوجَد للإيقان الإدراكيّ سيلانٌ. الزمان الموضوعيّ، إذًا، هو عادةٌ سيكولوجيّة، إنّه متركِّبٌ على أساس الوضع الطبيعيّ. القصديّةُ، بالتالي، لا تُفكِّكُ الزمنَ. بل هي تأخذُ 'الزمن' ككلٍّ، كوحدةٍ، ككليانيّة، وتوضِّحُ كلَّ ما هو مُضمَرٌ وتُجلِّيه وتكشفُ عنه.

بحسب تحليل هُسِرل الوصفيّ، فالقصديّة تُفسِّرُ 'الآن توًّا'؛ إنّها توضِحُ كلَّ ملاحظةٍ وكلَّ حرفٍ من خلال ترقُّبِ ما أتى قبلًا وما سيجيء في جدول الخبرة الذاتيّة. من دون الاستذكار والاستنظار الحضوريّين، كلُّ ذاك الذي كان سيكون هو لغو، إذ حتّى 'اللاشيء' هو مفهومٌ مُتشكِّلٌ من جدول الخبرة الذاتيّة. (لذا يبيّن هُسِرل أنّ الفاعل الـمُطلقَ الحقّ، 'الشيءَ' الوحيدَ

الـذي يتخطّى دمارَ العالم، هـو الوعي الذاتيّ بالزمان)[٢٣]. إنّ القواعـد الشكليّة والتركيبيّة للاستذكار والاستنظـار الحضوريّين تولِّدُ منشأ الزمان الفِنُمنُلوجـيّ وأصلَه. من دونها، لن يكـون الوعيُ الذاتيُّ بالزمان قادرًا علـى تشكيلِ الحقول الشاسعة للأفعال المتعدِّدة في خبرةٍ توحيديّة للموضوعيّة القصديّة.

الخلاصة

خـلال كلِّ نقاشنـا، كان من المهمّ أن نُلاحظ أنّ الآن المتجـدِّدةَ ليست جُسيمًا ذرّيًّا أو لحظةً منعزلـةً كإطـارٍ في بَكَرةِ فيلم سينمائـيٍّ قديم. بل الآن المَعيشة هي صـيرورة، سيلانٌ محضٌ يُشـكِّلُ العلاقةَ المساويةَ بين ما هو ماضٍ مباشـر (استذكار) وما وهو قادمٌ مباشر (استنظار). يُسمّـي هُسِرل مبدأ التشكيل الزمنيّ هـذا 'تعدٍّ transitivity'، أي «لكلِّ زمان ينتمي ما قبل وما بعد»[٢٤]. هذه الوحـدة الجوهريّة للاستذكار والاستنظار تُشكِّل ذوبانًا أو دمجًا لجزءٍ في جـزء. بالتالي، كلُّ استذكارٍ فيه شيءٌ من استذكارٍ... من استذكارٍ... من استذكارٍ... إلخ.، تمامًا كما أنّ كلَّ استنظارٍ يترقَّبُ أو يُدرِكُ هامشًا لما ليس بعد ولكن على وشك أن يكون. ما هو على وشك أن يكونَ وما كان للتوّ يؤلِّفان وحدةً متماسكةً من الخبرة التي تُشكِّلُ جدولًا حيًّا من الخبرة الذاتيّة.

إنّ المسألـة المرتبطـة بأصلِ الزمـان وتكوُّنه عادت بنا مجـدَّدًا إلى أوّل الدائـرة، إلى فهم مفـادُهُ أنّ وحدة الوعي الذاتيّ بالزمان تُشـكِّلُ كلَّ عالم كثرةِ الأفعال والخبرات. إلّا أنّ هذه الوحـدة الذاتيّة ليست، مـن ناحية أخرى، سيلانًا محضًا يصلُ بنا إلى الفوضى في النهاية. بل إنّ هـذا السيلان محكومٌ بالقواعد الصوريّة التركيبيّة. وأهمُّ قواعد الوعي الذاتيّ بالزمان هي الاستـذكار والاستنظار الحضوريّان والترقُّب الاستباقـيّ. بالفعل، إنّه فقط من خلال الوعي الذاتـيّ بالزمـان يتفتّحُ العالم لنـا بما هو عالم، في مقابـلِ الوصف 'الزمنيّ' المجـرّد لتكشُّف الأشيـاء الموضوعيّة في الوضـع الطبيعيّ. كما أنّ سؤالَ هُسِرل حـول أصلِ الزمانَ يدفعُ إلى السؤال حول معنى البُنية الترَنسندنتاليّة للمعرفة. كيف تُبنى أو تتشكَّلُ المعرفة بالموضوعات ومعناهـا ومحسوسيّاتها؟ بكلامٍ آخر، إلى أيّ مدًى تقتضي مسألةُ أصل الزمان، وهي تشتمل على إمكان الخبرة، «عودةً إلى المُعطيات الفِنُمنُلوجيّة التي يكون منها كلُّ ما يُختبرُ متشكِّلًا

(٢٣) لمزيد من التفصيل في هذا النقاش، انظر الفقرة ٨٣ من كتاب **الأفكار**.
(٢٤) **محاضَرات**، مصدر سابق، الصفحة ٢٩.

فِنُمِنُلوجيًّا؟»[٢٥].

يولِّـد الوعـي الذاتيّ بالزمان سيلانًا توحيديًّـا من الخبرة الذاتيّـة. إلّا أنّ هذه 'الوحدة'، ليست شيئًا، وليست قطبَ هويّة، ليست شيئًا بمعنى *res*. إنّ سيلانَ هذا الجدول هو سيلانٌ مُشكِّل، يُشكِّلُ الأفقَ الذي تنتمي إليه قصديّة الأشياء. بالتالي، تقفُ الشجرة خارجَ نافذتي، مُشكِّلـةً مظهرَهـا بالنسبة إليّ، عارِضـةً نفسَها في وحدةٍ وتناغم. ولكنّنـا نصل إلى التناغم الموضوعـيّ حول ما نـراهُ بالموافقة علـى أنّ ما نراهُ هو هنـاك، حاضرٌ، أمامنـا. بالتالي، ما يكتشفه هُسِرل بواسطة الردِّ إلى الزمان الفِنُمِنُلوجيّ هو إمكانُ كلِّ الأشياء.

مـن ثَمَّ، فإنّ هُسـرل يقصد بالموضوعيّة الخـبرةَ 'الأصليّة'، أي المعيـارَ الحدسيَّ والملائمَ لتقييم الخبرة. «إنّ مسألة الأصل»، يُجادل هُسِرل، «تتوجَّهُ نحو الصُّوَرِ البدائيّة لوعي الزمان حيـث تتشكَّلُ التفاوتات البدائيّـة للزمن، حدسًا وإطلاقًا، كـمصـادر مولِّدة *originäreen* لـكلِّ اليقينيّات بالنسبـة إلى الزمان»[٢٦]. بكلام آخر، لا علاقة لمسألـة أصلِ الزمان ومنشئه بالحالات النفسيّة والعقليّة للأشخاص التجريبيّين، أو بالنزعة السايكولوجيّة psychologism أو الفطريّـة المتطرِّفة[٢٧] nativism. على العكس مـن ذلك، ما يكتشفه هُسِرل بتحليل أصلِ الزمـان وتكوُّنـه هو الزمان الفِنُمِنُلوجـيّ، أي الماقبْليّ، هو الخـبرة المَعيشة للوعي الماقبل–تأمُّليّ. إنّ أصلَ الزمان عند هُسِرلَ مُشكِّل، إنّ سيلانَهُ المحض **يُشكِّلُ** الزمانَ من خلال تكوُّن تاريخيٍّ للخبرة الذاتيّة. في محاضرات ١٩٠٥، يصف هُسِرل أوّلًا أصلَ الزمان كصيرورةٍ أو سيـلانٍ أو جـدولٍ حيٍّ يُشكِّلُ الوعيَ من خلال 'آثار' مـن الاستذكار والاستنظار تقبعُ عند هامشـ كلِّ آنٍ متجدِّدة. لكن في وقت صـدور كتاب **الأفكار** عام ١٩١٣، فإنّ هُسِرل كان قـد بدأ بالابتعاد عن ميوله الواقعيّة. الآن، بدأ يصفُ تكوُّنَ الزمان بمصطلحات الفِنُمِنُلوجيا الترَنسندَنتاليّة، بالتحديد، في علاقته بقوانين الوعي حيث السيلانُ أو حيث يتشكَّلُ جدولُ الزمـان الذاتيّ. وفي حين يُجادلُ هُسِـرل في محاضرات ١٩٠٥ بأنّ الوعـيَ الذاتيّ بالزمان ماقبل–تأمُّليّ (أي مُتشكِّل أو يُشكِّل)، فإنّه لاحقًا يبدأ بنقل تحليله في العشر الثانية من القرن المنصـرم ليقولَ إن الوعـي الذاتيّ بالزمان هو تأمُّليٌّ (أي مُشـكِّلٌ أو يُشكِّل). هذه النقلةُ في التوصيف الهُسِرليّ لأصل الزمان ترمزُ إلى النقلة الأكثر إشكاليّة في رؤية هُسِرل المنبثقة حول

(٢٥) **محاضرات**، مصدر سابق، الصفحة ٢٧.

(٢٦) المصدر نفسه، الصفحة ٢٨.

(٢٧) الفطريّة المتطرِّفة، في ميدان السيكولوجيا، مذهبٌ يرى أنّ الذهنَ يمتلك مُعتقدات ومواهبَ سابقةً على الكسب، مُخالفًا في ذلك مقولةَ الإمبريقيّين الذين يُقرُّون للذهن بالقدرة على الكسب فحسب. المترجم.

مـدى المشروع الترَنسندَنتاليّ نفسه وغايته (فلنقُـل، ما بين ١٩٠٥ و١٩١٥). بالفعل، فإنّ تطوُّرَ تحليل هُسِرل لتكَوُّن الزمانَ يَعكس اهتمامَهُ المتزايدَ بالمثاليّة الترَنسدَنتاليّة.